ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Ali Sadiq Kazem Al-Mousawi

Wasit University - College of Education for Human Sciences

Email: alisadiq@uowasit.edu.iq

Keywords:

Orientator / Marker, Argumentative, Discourse, Oath.

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 20. Jan.2026

Accepted 24. Mar.2026

Published 25. May.2026

The Rhetorical Purpose of the Qur'anic Discourse: The Oath as an Example

A B S T R A C T

The effect of the oath style in argumentative orientation lies in its role as an inferential driving force that shifts the discourse from mere information-sharing to the stage of persuasion and conviction. The oath functions as a mechanism to enhance acceptability for the recipient, especially in contexts of doubt or denial. In its essence, the oath represents an authoritative argument that summons the "object of the oath" as a witness to truth and a reinforcer of credibility, thereby constructing an ascending argumentative scale that places the conclusion—or the "subject of the oath"—at the highest level of certainty and affirmation.

The effectiveness of this style is manifested in its ability to mentally guide the recipient by linking metaphysical or abstract truths to tangible cosmic or existential realities, which narrows the scope for counter-interpretations and closes the avenues of objection. The oath does not merely emphasize the content of the sentence; rather, it charges it with a performative energy that imposes a form of cognitive and emotional commitment on the listener toward the issue at hand. Thus, the oath is transformed from a mere linguistic structure into an integrated discourse strategy aimed at modifying the interlocutor's beliefs and guiding their responsive behavior to align with the speaker's goals and argumentative intent.

© 2026 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol63.Iss2.5326

الموجه الحجاجي في الخطاب القرآني/ القَسَم مثالا

أ.م.د علي صادق كاظم الموسوي
جامعة واسط ـ كُلِّيَّة التَّربية للعلوم الإنسانيَّة

الملخص:

يتمثل أثر أسلوب القَسَم في التوجيه الحجاجي في كونه قوة دفع استدلالية تحول مسار الخطاب من مجرد الإخبار إلى مرحلة الإقناع والإذعان، إذ يعمل القَسَم كآلية لرفع درجة المقبولية لدى المتلقي لا سيما في مواقف الشك أو الإنكار، فالقَسَم في جوهره يمثل حجة تدفع باتجاه إقناع المخاطب وتستدعي لذلك المقسم به كشاهد صدق ومعزز للمصداقية مما يساهم في بناء توجيهي تصاعدي يضع النتيجة أو جواب القَسَم في أعلى درجات التقرير واليقين .

وتتجلى فاعلية هذا الأسلوب في مقدرته على توجيه المتلقي ذهنياً عبر ربط الحقيقة الغيبية أو المجردة بحقائق كونية أو وجودية ملموسة مما يضيق الخناق على التأويلات المضادة ويغلق منافذ الاعتراض، فالقَسَم لا يكتفي بتأكيد مضمون الجملة بل يشحنها بطاقة إنجازية تفرض على السامع نوعاً من الالتزام المعرفي والوجداني تجاه القضية المطروحة وبذلك يتحول القَسَم من مجرد تركيب لغوي إلى استراتيجية خطابية متكاملة تهدف إلى تعديل معتقدات المخاطب وتوجيه سلوكه نحو الاستجابة بما يتفق مع غايات المتكلم وقصديته الحجاجية .

الكلمات المفتاحية: الموجه، الحجاجي ، الخطاب ، القَسَم .

المقدمة:

تُعدُّ دراسة القَسَم في الموروث اللغوي من أكثر المجالات التي شهدت تحولاً جذرياً في الرؤية المنهجية، إذ انتقل البحث فيه من ضيق القالب النحوي التقليدي إلى رحابة الفعل الكلامي الحجاجي، وهذا التحول ليس مجرد استبدال مصطلحات؛ بل هو إعادة اكتشاف للوظيفة الحيوية للغة داخل النص لا سيما النص القرآني الذي يوظف القَسَم كأداة إقناع عليا.

لقد انحصر الاهتمام بالقَسَم – لمدة طويلة– في إعرابه وتفكيك عناصره داخل الجملة، إذ ركز النحاة القدماء على الأدوات التي تنوب عن فعل القَسَم مثل الواو، والباء، والتاء وعلى الحالة الإعرابية للمقسم به وجواب القَسَم من حيث لزوم توكيده بأساليب محددة وفي هذه المرحلة كان القَسَم يُعامل كبنية لغوية مغلقة تهدف إلى التأكيد اللفظي المحض وتُدرس بمعزل عن سياقها التواصلي أو غاياتها التأثيرية وكأن الهدف منه هو مجرد إخبار السامع بمضمون الجواب مع زيادة في التأكيد.

ومع ظهور الدراسات الحجاجية بدأ النظر إلى القَسَم باعتباره إنجازاً لا مجرد إخبار فالقَسَم هنا ليس وصفاً لواقع؛ بل هو فعل الالتزام الذي ينشئ حالة جديدة من المسؤولية الأخلاقية والاعتقادية وبموجب هذا المنظور لم يعد البحث مهتماً بحركة الإعراب بقدر اهتمامه بالقوة الانجازية التي يمنحها القَسَم للمتحدث وسلطته المعنوية في موضع الاختبار ومحاولة فهم المقام الذي استدعى اللجوء إلى هذا الفعل الكلامي دون غيره .

أما التحول الأعمق فقد تجلى في عدِّ القَسَم موجهاً حجاجياً ضمن استراتيجية الخطاب، إذ لم يعد زينة أسلوبية؛ بل أداة لربط الحجج بالنتائج وفي النص القرآني يعمل القَسَم وفق هندسة دقيقة لتوجيه المُخاطَب إذ يرفع من قيمة المدعى

عليه ويهيئ المتلقي ذهنياً لاستقبال النتائج العظيمة، كما يتحول المقسم به من مجرد مفردة لغوية إلى شاهد حجاجي يُستدعى لكسر ممانعة المُخاطَب المُنكِر وتوجيه مساره الاستدلالي نحو التصديق عبر ربط الحقائق الغيبية بالحقائق المشاهدة .

إن الانتقال من النحو إلى الحجاج في دراسة القَسَم يحرر النص من القوالب الجامدة ويجعلنا ندرك أن القَسَم القرآني ليس تكراراً للتأكيد؛ بل هو هندسة دقيقة للإقناع تتضافر فيها اللغة مع المنطق والوجدان وهذا المنظور يعيد للغة فاعليتها ويكشف عن الوجه الحواري للنص الذي لا يكتفي بتقديم الحقيقة بل يسعى لتثبيتها في ذهن المتلقي بأرقى الوسائل الحجاجية التي تراعي حالته النفسية والذهنية .

ولا يخفى على القارئ الكريم أن المصنفات في أقسام القرآن بلغت المئات بين بحث ودراسة أكاديمية إلا أنني أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أهم دراستين لمن يريد أن يطلع عليها، وهما: كتاب التبيان في أقسام القرآن لابن القيم الجوزية (ت٧٢٣هـ)/ دراسة وتحقيق، وقد أجريت هذه الدراسة في جامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية عام ٢٠٠١م ، وكتاب الأقسام في القرآن للشيخ جعفر السبحاني، الذي درس فيه القَسَم دراسة تشريحية مستفيضة وهاتان الدراستان بدورهما تختلفان عن هذا البحث الذي يتناول القَسَم من وجهة نظر حجاجية .

اقتضت طبيعة المعالجة أن يكون تقسيم البحث على ثلاثة أسفار متكاملة، يبدأ **السِفر الاول: في تحول القَسَم من بنية الجملة إلى بنية الخطاب،** والسِفر الثاني: **القَسَم بوصفه آلة توجيهية في الخطاب القرآني** ، أما السِفر الثالث فكان تحت عنوان **القَسَم مرجعية حجاجية وسلطة استدلالية،** ثم كانت **الخاتمة** محلا لأهم النتائج، كانت المنهجية في هذه الأسفار الثلاثة مبنية على وفق المنهج التحليلي الحجاجي التي برزت الوجه الإعجازي للقسم القرآني وقدرته الفائقة على إدارة الصراع الحجاجي وتثبيت الحقائق العقدية والكونية بأسلوب يجمع بين الجمال الفني والقوة البرهانية التي لا تُقاوم.

السِفر الأول: تحول القَسَم من بنية الجملة إلى بنية الخطاب

ينتمي أسلوب القَسَم في مشجر البلاغة الى فرع الإنشاء غير الطلبي، وعدم وصفه بالصدق أو الكذب من أهم سماته الفريدة التي تميزه عن غيره؛ وقد فرق ابن جني(ت٣٩٢هـ) بين نوعين من القَسَم: الخبري، والإنشائي، فالخبري ما كان فعل القَسَم فيه صريحا، والإنشائي الذي لا يكتفي بفعل القَسَم وإنما يحتاج الى جواب وكذلك لو قلت في حكاية القَسَم: حلفت بالله أي كان قسمي هذا لكان كلاماً لكونه مستقلاً ولو أردت به صريح القَسَم لكان قولاً من حيث كان ناقصاً لاحتياجه إلى جوابه" (ابن جني، د.ت،١٩/١)، وفي السياق ذاته فقد حدَّه أهل العلم من المتأخرين بنوعين أيضا: قسَمُ السّؤالِ، ويسمَّى قسَم الطَّلَبِ أيضاً، وهو ما كان جوابه متضمناً طلباً: من أمرٍ، أو نهيٍ، أو استفهام. وهو نحو قولك: بالله لتفعلنَّ، نَشَدتُكَ الله إلَّا ما فعلتَ كذا، عَمْرَتَكَ الله لتفعلنَّ كذا، وقسَمُ الإخبارِ، وهو ما قُصد به تأكيد جوابه، كقولك: والله ما فعلتُ كذا، وربي إني لصادق، وعَهْدِ اللهِ لأفعلنَّ كذا (هارون، ٢٠٠١، ١٦٤-١٦٥) ولم ينل هذا الفرع غير الطلبي تركيز أهل الصنعة من البلاغيين "لقلّة الأغراض المتعلقة بها؛ ولأن معظمها أخبار نقلت من معانيها الأصلية، أما الإنشاء الذي يعنون به فهو الطلبي لما فيه من تفنن في القول لخروجه عن أغراضه الحقيقية إلى أغراض مجازية تفهم من سياق الكلام (مطلوب،١٩٨٠، ١١٠) وهو أن يريد المتكلم الحلف على شيء فيحلف بما يكون فيه فخرا له أو تعظيم لشأنه، أو تنويه لقدره، أو ما يكون ذما لغيره، أو جاريا مجرى الغزل والترقق، أو خارجا مخرج الموعظة والزهد (المصري ، د.ت، ١١٢) ويستلزم القَسَم صيغة دلالية واحدة ولا يغادرها الى غيرها فيأتي بمعنى الحلف واليمين (ينظر: الجوهري،١٩٨٢، ٢٠١١/٥)، إذ عملت هذه الصيغة بتفرد عملها موجهاً حجاجياً داخل النص القرآني استطاع بأسلوبه المتفرد من خلال الربط بين عالم المشاهدة الذي يمثله المقسم به وبين عالم الغيب واليقين الذي يمثله المقسم عليه ليخلق في النهاية مساراً

استدلالياً لا يملك المتلقي حياله إلا الإقرار والتسليم بما يقرره القَسَم، قال تعالى: **(والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع)** الطور/١-٨ ، فقد تم توظيف أسلوب القَسَم كآلية حجاجية قادرة على نقل السامع من معاينة المشاهد الكونية والتشريعية إلى التسليم المطلق بحتمية الجزاء، فيبدأ النص بحشد مقسمات تجمع بين قدسية المكان في الطور وصدقية التدوين في الكتاب المسطور وعلو المكانة في البيت المعمور واتساع الأفق في السقف المرفوع واضطراب القوة في البحر المسجور، وهذا التراكم الكمي والنوعي للمقسم به يعمل كموجه حجاجي يهدف إلى تعظيم المقسم عليه وربطه بقدرة الخالق التي لا يعجزها بعث ولا حساب فالانتقال الرتيب والمتناغم عبر فواصل حرف الراء يخلق حالة من الترقب النفسي يتبعها هجوم إقناعي يتمثل في جواب القَسَم الذي جاء جملة اسمية مؤكدة بإن واللام المزحلقة لتقرير حقيقة ما وثبوت وقوع العذاب وبذلك يتحول القَسَم من مجرد صيغة لغوية للتأكيد إلى بناء استدلالي متكامل يربط بين عظمة النظم الكوني وصدق الخبر الإلهي إذ يصبح إنكار وقوع العذاب مناقضاً للمشاهدات التي أقسم الله بها، وينتهي المسار الحجاجي بنفي أي قوة مضادة في قوله ما له من دافع ليغلق الدائرة أمام أي احتمال للمناورة الذهنية أو التشكيك في نفاذ الإرادة الربانية، فكان جواب القَسَم السابق والمراد بالعذاب المخبر بوقوعه عذاب يوم القيامة الذي أوعد الله به الكفار المكذبين وهو من الدلالة على أنه من القضاء المحتوم الذي لا محيص عن وقوعه وبنسبة العذاب إلى الرب المضاف إلى ضمير الخطاب دون أن يقال: عذاب الله تأييد للنبي – صلى الله عليه وآله– على مكذبي دعوته وتطييب لنفسه (ينظر: الطبابطائي،١٩٩٧، ٧/١٩) .

إن الناظر في أسلوب الخطاب القرآني الرفيع وكيفية توظيف القَسَم بداخله يعلم أنه لا يتم اختيار المقسم به اعتباطاً، ولا يكون القسم إلا باسم معظم، وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن الكريم في سبعة مواضع (السيوطي، ١٩٨٨، ٣٤١/١) بل يوضع بدقة ليكون حجة شاهدة تدعم الدعوى المطروحة مما يحول النص إلى نسيج مترابط من الأدلة والبراهين التي تراعي مقتضى حال السامع ودرجة إنكاره، ولذلك نرى الخطاب يتنقل من القَسَم بذات الله كما في قوله تعالى:**(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ)** التغابن/ من الآية ٧، الى القَسَم بالموجودات وهو في هذين النوعين "لا يخرج عن وجهين إما لفضيلة أو لمنفعة ، فالفضيلة ، كقوله تعالى: **(وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)** التين/٢-٣، والمنفعة كقوله تعالى: **(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)** التين/١ (الجوزية، د.ت، ٣)، فقد تمثلت الوظيفة الحجاجية لأسلوب القَسَم في كونه آلة توجيهية تربط بين قدسية المكان وكرامة الإنسان، إذ ينتقل الخطاب من القَسَم بالجبل الذي شهد تكليم موسى عليه السلام (طور سينين) إلى القَسَم بمكة المكرمة (البلد الأمين) التي شهدت بعثة خاتم الأنبياء محمد –صلى الله عليه وآله– ، لخلق هالة من التعظيم والتقديس تهيئ السامع لاستقبال القضية المركزية في جواب القَسَم وهي خلق الإنسان في أحسن تقويم.

إن هذا التدرج المكاني في القَسَم يعمل كموجّه إقناعي يستند إلى تراكم الشواهد؛ فالمقسم به هنا ليس مجرد جغرافيا صماء بل هي محاضن الوحي الكبرى التي تحمل دلالة العناية الإلهية بالبشرية عبر الرسالات، وكأن السياق يقرر أنه من غير المنطقي أن يعتني الخالق بكل هذه الأماكن ويقدسها ثم يترك الإنسان سدى دون غاية أو تكريم. ويبرز اسم الإشارة (هذا) في قوله "وهذا البلد الأمين" كأداة توجيهية بصرية تزيد من ملموسية القَسَم وحضوره في وجدان المخاطبين، مما ينقل القضية من التجريد إلى المشاهدة العيانية التي لا تقبل الجدل وتتعمق الدلالة الحجاجية بربط "الأمان" الممنوح للبلد بـ"التقويم" الممنوح للإنسان؛ ليكون القَسَم بمثابة المقدمة الاستدلالية التي تثبت أن من أحسن هندسة المكان ووهبه الأمن قادر على إحسان خلق الإنسان ووهبه الكمال الفطري، مما يجعل أي انحراف للإنسان عن هذه الفطرة أو تكذيبه بالدين بعد ذلك مناقضاً للمنطق الذي قامت عليه هذه المقدسات.

إن المتأمل في التراث النحوي العربي، عند سيبويه (ت١٨٠هـ) ومن تبعه، يجد أن دراسة "القَسَم" ظلت تدور في فلك الدراسات البنيوية التي تعنى بسلامة التركيب اللفظي أكثر من عنايتها بالمقاصد الحجاجية. فكان تعامل سيبويه والذين جاء من بعده من النحاة مع القَسَم وصفياً تركيباً يهدف بالدرجة الأولى إلى تقوية مضمون الجملة التي تليها، أي جواب القَسَم وهذا المنهج يرى في القَسَم وسيلة لغوية لرفع الشك وتأكيد الخبر وجملة القَسَم تابعة في دلالتها الكلية للمقسم عليه (ينظر: سيبويه، ١٩٨٨، ١٠٤/٣؛ ينظر: المبرد،٢،١٩٩٤/٣١٧)، وهذا الحصر المنهجي يغفل حقيقة أن القَسَم في جوهره ليس وصفاً لحالة المتكلم، بل هو فعل يغير من الوضع القانوني والأخلاقي للمتكلم والمخاطب معاً. إن النقد الموجه لهذا الفكر يكمن في اختزال "قوة القول" في وظيفة "التوكيد"، وهو ما أدى إلى تهميش الجانب التفاعلي للقسم كعقد اجتماعي ولساني.

إن الانتقال بالقَسَم من مستوى البنية النحوية إلى مستوى بنية الخطاب يعدُّ تحولاً من دراسة اللغة كقوانين جافة إلى دراستها كعملية تواصلية حية وتتجلى أولى عتبات هذا التحول في النظر إلى القَسَم بوصفه فعلاً كلامياً إنجازياً يتجاوز مجرد كونه أداة لتوكيد الجملة الخبرية ففي الدرس النحوي ظل القَسَم يتمحور حول وظيفة التوكيد، إذ نُظر إليه كعنصر يدخل على الجملة لرفع الشك عنها؛ في حين ان الدراسات الحديثة ترى أن القَسَم ينقل الجملة من حيز الخبر الذي يحتمل التصديق والتكذيب إلى حيز الفعل الذي يغير في الواقع التخاطبي فالخطاب حين يحمل القَسَم لا يكتفي بنقل معلومة بل يضع الثقل الأخلاقي والمعرفي في كفته مما يحول القول من بنية لسانية واصفة إلى بنية خطابية فاعلة ومؤثرة فالقَسَم في قوله تعالى: **(ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين)** يونس/٥٣، برز أسلوب القَسَم كأداة توجيهية مركزية تتجاوز مجرد الإخبار لتؤدي وظيفة حجاجية قاطعة في مواجهة التشكيك. تبدأ الآية بعرض تساؤل المنكرين بصيغة الاستنباء التي توحي بطلب الخبر اليقين مع وجود ريبة، فيأتي الرد الإلهي آمراً النبي – صلى الله عليه وآله – بالقَسَم الصريح المصحوب بحرف الجواب (إي) الذي لا يُستعمل إلا قبل القَسَم لإثبات ما بعده، مما يمنح الخطاب قوة دفع إقناعية استثنائية. فالقَسَم بـ (وربي) يوجه الخطاب نحو استحضار صفة الربوبية التي تقتضي العدل والبعث والجزاء، وهو ما يعيد ربط القضية بالمنطق الوجودي الذي لا يمكن للمنكر الفرار منه، إذ أن نسبة العذاب أو الحق للرب المضاف لضمير الخطاب هي تأييد للنبي وتثبيت لقلبه في مواجهة التكذيب، كما أن إدخال كلمات القائل في صيغة الخطاب بشكل مباشر يعد أقصى درجة من الموضوعية بقدر ما يلتزم عموما بالنقل الحرفي دون تحريف، حتى إن بعضهم يعتقد أنه يمكن أن يصل الخطاب الذي يستخدم هذه الطريقة الى نسبة ١٠٠٪ من الموضوعية (فضل، ١٩٩٢، ٩١)، وتكتمل الآلية التوجيهية في جواب القَسَم (إنه لحق) إذ تضافرت المؤكدات من الجملة الاسمية، وحرف "إنّ"، واللام المزحلقة، لخلق يقين لا يتزعزع يقابل "الزعم" والتشكيك الظاهر في سؤالهم. ويتحول القَسَم هنا إلى "آلة توجيه" تقهر الشك باليقين، وتؤكد أن هذا الحق من القضاء المحتوم الذي لا محيص عن وقوعه، تماماً كما أن عذاب الله "واقع ما له من دافع". ويختتم الخطاب الحجاجي بنفي الإعجاز عنهم (وما أنتم بمعجزين) ليقطع الطريق على أي توهم بالهروب من هذه الحقيقة الكونية، مشدداً على أن من أحاطت قدرته بكل شيء وقامت أدلة وحيه في كل مكان لا يعجزه تحقيق ما أقسم عليه.

وفي آيات القَسَم القرآني نجد أن القَسَم لا يعمل في معزل عن سياقه الحجاجي؛ بل هو استجابة لمقام تخاطبي محدد يتسم عادة بالإنكار أو الشك مما يجعل من القَسَم استراتيجية دفاعية وهجومية في آن واحد تهدف إلى كسر ممانعة المتلقي وهنا يتجاوز القَسَم حدود الجملة الواحدة ليصبح مهيمناً على مسار الخطاب بالكامل فالقَسَم في مطلع السور ليس مجرد فاتحة لغوية يتشاركه النص مع السامع ليجبره على الاستماع بجدية لِما سيأتي في جواب القَسَم وبذلك تتحول العناصر اللغوية من مجرد روابط نحوية إلى روابط حجاجية توجه ذهن المتلقي نحو النتيجة التي يريد النص تقريرها،

فالقَسَم في قوله تعالى: **(والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا إن إلهكم لواحد)** الصافات/١-٤ ، فيه بُعدا حجاجيا سابقا للبعد الاخباري في القول، في كل قول، فكل قول هو حجاجي بالقوة، قبل أن يؤدي دوره الاخباري، فالسمة الحجاجية منغرسة في اللغة (الحباشة ، ١٩٩٢ ،٧٠) .

وفي السورة احتجاج على التوحيد، وإنذار للمشركين وتبشير للمخلصين من المؤمنين، وبيان ما يؤول إليه حال كل من الفريقين ثم ذكر عدة من عباده المؤمنين ممن مَنّ الله عليهم وقضى أن ينصرهم على عدوهم (الطباطبائي، ١٩٩٧، ١٢١/١٧)، فقد عمل أسلوب القَسَم في النص كآلة توجيه حجاجية استثنائية، كان الهدف منها إخضاع المشركين لحقيقة التوحيد عبر استحضار عظمة النظام الغيبي وسلطان الوحي فبدأ النص بحشد المقسمات التي تشير إلى جماعات الملائكة أو القوى الغيبية التي تصطف في طاعة الله، وتزجر عن المعاصي بالتخويف والمنع، وتتلو الذكر والحكمة وكان هذا التتابع في القَسَم باستعمال فاء التعقيب الذي يخلق تراتبية وظيفية توحي بأن الكون محكوم بنظام دقيق وصارم، مما يمهد الطريق حجاجياً لقبول جواب القَسَم وهو وحدانية الألوهية؛ فمن يملك تصريف هذه القوى وتوجيهها لا بد أن يكون واحداً لا شريك له.

وتبرز الوظيفة التوجيهية في كون القَسَم هنا يعمل كمقدمة استدلالية قاهرة؛ إذ ينقل المخاطب من معاينة آثار التدبير الإلهي في الملائكة والوحي إلى النتيجة الحتمية المتمثلة في جملة (إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ)، وقد جاء جواب القَسَم جملة اسمية مؤكدة بـ "إنّ" لتقرير هذه الحقيقة وتقويتها في نفوس المكذبين، وبذلك يتحول القَسَم من مجرد صيغة لغوية إلى موجه يحاصر المنكرين عبر ربط عظمة المقسم به -عالم الملائكة والوحي- بصدقية المقسم عليه -التوحيد- مما يجعل التكذيب بالوحدانية مناقضاً لعظمة هذا النظام المشهود به .

وتتجلى أهمية القَسَم بامتداد أثره ليوجه دلالات الجمل اللاحقة ويمنحها صبغة اليقين والقطع، فالقَسَم يعمل كموجه يحدد وجهة النظر التي يجب على المتلقي تبنيها وهو ما يخرجه -القَسَم- من ضيق الإعراب المحلي للكلمات إلى سعة الوظيفة الكلية للخطاب، إذ يصبح المقسم به والمقسم عليه طرفي معادلة منطقية تهدف إلى إقامة الحجة والبرهان؛ لأنّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدّة ثباته واستقامته، لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المستشهد به أعلى كعبا وأبين فضلا وأرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى وآكد(الزمخشري، ١٤٠٧ ، ٥٦٧/٣) وبذلك ينتقل البحث من السؤال عن كيفية صياغة جملة القَسَم إلى السؤال عن كيفية عمل القَسَم داخل النسيج الكلي للنص وقدرته على إدارة الصراع الحجاجي بين المتكلم والمخاطب؛ لأن إشراك السامع في استنباط الدليل، وذلك مما يكسر سورة خصامه (الفراهي، ١٩٩٤، ٩٧) .

إن دراسة القَسَم في بنية الخطاب تستلزم تحليل المسافة الدلالية بين المقسم به وجواب القَسَم وهو ما لا يمكن للتحليل النحوي رصده فالعلاقة بينهما في القرآن الكريم هي علاقة تلازم منطقي وحجاجي مكثف تجعل من الخطاب وحدة واحدة لا تتجزأ إذ تخدم كل مفردة في جملة القَسَم الغرض النهائي للخطاب ومن هنا ندرك أن القَسَم هو المحرك الأساسي للطاقة الإقناعية في النص فهو الذي يحدد نبرة الخطاب وقوته التأثيرية ويحول الحقيقة الذهنية إلى حقيقة واقعة تلزم السامع بالحجة والبرهان وتدفعه نحو الإقرار والتسليم بمقتضى الخطاب القرآني ومقاصده فليس الغرض من الحجة الحية الوصول الى الحقيقة الوصفية، وإنما الغرض منها الوصول الى الحقيقة المعيارية،....، أي المقاصد الخفية أو الحِكَم التي تنطوي عليها؛ فكل خبر مزود بقيمة معينة هو حكمته، ولا عبرة بالخبر ما لم نحصل منه على الحكمة؛ وكل مدرك ملبوس بمعنى مخصوص هو حكمته، ولا عبرة بالمدك ما لم نستشعر فيه هذا المعنى(طه، د.ت ،١٩-٢٠).

السِفر الثاني: القَسَم بوصفه آلة توجيهية في الخطاب القرآني

مما تفرد به أسلوب القَسَم من بين الأساليب البلاغية الاخرى أنه أسلوب سماوي ملائكي قبل أن يكون أرضي أنسي عرفه سكان أهل السماوات قبل أهل الارض، وقد ارتبط قبل غيره من الأساليب البلاغية بالحجاج والأدلة القرآنية في هذا أوسع من أن تذكر هنا، وعلى سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: **(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ)** الاعراف/٢١، وقوله تعالى : **(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)** سورة ص/ ٨٢، وتتمثل الغاية القصوى من توظيف أسلوب القَسَم في الخطاب القرآني في إحداث أثر تحويلي في بنية المتلقي الذهنية والاعتقادية إذ يعمل القَسَم كآلية توجيهية تهدف إلى تذليل العقبات النفسية والمعرفية التي تحول دون قبول الحقيقة فالقَسَم لا يتوجه إلى فراغ بل يستهدف مخاطباً يمتلك موقفاً مسبقاً يتراوح بين الإنكار والشك والتردد وهنا تبرز الطاقة الإنجازية للقسم في قدرتها على خلخلة هذه المواقف عبر استراتيجية تكسير الممانعة إذ يُفاجأ المتلقي بقوة القَسَم التي تفرض عليه نوعاً من الحصار المنطقي يدفعه إلى إعادة النظر في مقدماته السابقة وبذلك يصبح القَسَم أداة لإدارة الانتباه وتوجيه التركيز نحو جواب القَسَم بعدّه الحقيقة الوحيدة الممكنة التي لا تقبل الجدل، فمن خلال استثمار الطاقة الانجازية للمقسم به يكون لذكره في نص القَسَم ما قد يثير فينا الرهبة والعظمة التي توصلنا الى عتبة التفكر من خلال إثارة الفضول في البحث عن دواعيه وأسبابه كما في قوله تعالى: **(فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)** المعارج/٤٠-٤١، فالالتفات في قوله: (فَلَا أُقْسِمُ) من التكلم مع الغير في (إِنَّا خَلَقْنَاهُم) إلى التكلم وحده، والوجه فيه تأكيد القَسَم بإسناده إلى الله تعالى نفسه، فقد مهد العامل الحجاجي في الآية الكريمة للقسم عبر نفي الحجة المقابلة أو استبعاد الشك قبل وقوعه، مما يمنح القَسَم قوة دفع إضافية تضعه في أعلى مراتب التوجيه (ينظر: الطبابطائي،١٩٩٧، ٢٠/٢٤)، كما أن العدول عن استعمال صيغة القَسَم الاعتيادية "أقسم بالله" إلى **(بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)** وورودها في الخطاب وما فيها من التفات من التكلم وحده إلى الغيبة، على ما فيه من الإشارة إلى صفة من صفاته –تعالى– هي المبدأ في خلق الناس جيلاً بعد جيل، فالقَسَم هنا ليس مجرد حلية لفظية كما قد يفهم؛ بل هو توجيه للمخاطب نحو التفكر والتدبر في الدليل الكوني الذي يقوده الى استحضار "المشارق والمغارب" فيعمل كحجة واقعية؛ فمن يملك هذا النظام الكوني العجيب من باب أولى أن يملك بالضرورة القدرة على التبديل و البعث، وقد ادى القَسَم مهمة توجيه نقلت ذهن السامع من حالة إنكار البعث إلى الإقرار بنظام الكون، مما يجعل إنكار القدرة على التبديل مناقضاً للمشاهدة العيانية التأملية للكون من خلال تآزر جملتي جواب القَسَم ونتيجته الحتمية **(وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)** (ينظر: الطبابطائي،١٩٩٧، ٢٠/٢٤).

وتعتمد آلية التوجيه الحجاجي على ممانعة الخصم من خلال الربط بين القَسَم والروابط التوكيدية الأخرى التي تشكل في مجموعها قوة ضاغطة على وعي السامع فاستعمال "إنَّ، واللام، وقد" في جواب القَسَم يعمل على تعزيز المسار الحجاجي وتضييق دائرة المناورة الذهنية للمتلقي مما يجعله في مواجهة مباشرة مع الحقيقة دون مواربة ولعل الغاية التي من أجلها يعمد المتكلم الى تكثيف الأدوات داخل النص هو إحداث نوع من الإذعان النفسي الذي يسبق الإذعان العقلي للمخاطب، فالقَسَم بما يحمله من جلال وهيبة يستنفر وجدان المتلقي ويهيئه لاستقبال القضية الكبرى في جواب القَسَم كقضية يقينية غير قابلة للتشكيك وبذلك يتحول فعل التلقي من مجرد استقبال سلبي للمعلومات إلى عملية تفاعلية يشارك فيها المتلقي في بناء المعنى والاعتراف بسلطة الخطاب، قال تعالى: **(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)** التغابن/٧، فقد كان لأسلوب القَسَم قوة دفع توجيهية حطمت ذلك الزعم وإعادة صياغة الواقع الذهني للمخاطب من خلال الأداة "بلى" التي تعمل كـ "عامل إبطال". وظيفتها هي قلب التوجيه الحجاجي؛ فبينما كان سياق الكفار يندفع نحو نفي البعث، تأتي "بلى" لتقطع هذا المسار وتبني مساراً مضاداً إنها تمثل عتبة المواجهة التي تهيئ الفضاء لاستقبال القَسَم الإيجابي المتمثل بإضافة كلمة "رب" الى ياء المتكلم التي تمثل النبي –صلى الله عليه

وآله– وهي استراتيجية توجيه تهدف إلى إبراز الصلة الوثيقة بين الآمر بالقَسَم –الله– والمؤدي له –الرسول– وهذا التوجيه يحول القضية من نقاش نظري حول البعث إلى تحدٍ وجودي مستند إلى سلطة الربوبية فالمتكلم يرهن مصداقيته بالمقدس لإثبات وقوع الفعل من خلال اجتماع ثلاث أدوات توجيهية متمثلة بالقَسَم (وربي): وهو الموجه الأكبر الذي يمنح القول صبغة الحقيقة المطلقة، و لام القَسَم : وهي موجه تأكيدي يربط الفعل بالقَسَم ربطاً عضوياً، ونون التوكيد الثقيلة: وهي الأداة التي تغلق الفضاء الحجاجي تماماً أمام أي احتمال للنفي(ينظر: الطبرسي،٢٠٠٥، ٢٣/١٠).

إن اجتماع هذه العناصر يحول "البعث" من مجرد "خبر" إلى "واقعة محتومة" يتم إنشاؤها في ذهن السامع بقوة اللفظ قبل وقوعها في الزمن وتوجيه الخطاب هنا لا يهدف إلى "الإقناع" الهادئ فحسب، بل إلى "الإلزام". فالقَسَم يضع المنكر في مأزق حقيقي: فإما أن يكذب "الرب" – وهو أمر يتردد فيه حتى المشركون الذين يقرون بالربوبية – وإما أن يقبل بالبعث، عملت طاقة القَسَم التوجيهية هنا على منع الخصم من المناورة الحجاجية، من خلال الاعتراف بإمكانية البعث عقلاً إلى وجوب البعث صدقاً وبضمانة القَسَم الإلهي.

إن التوجيه الحجاجي في القَسَم يعتمد على تنويع المقسم به بما يتناسب مع درجة إنكار المخاطب فكلما اشتدت ممانعة المتلقي جاءت الأقسام أكثر كثافة وتوالياً كما في مطالع السور المكية التي تواجه جحود المشركين بالبعث والوحي، إذ تعمل هذه الأقسام المتلاحقة كضربات حجاجية متتالية تهدف إلى زعزعة الثوابت الخاطئة لدى المتلقي وبناء منظومة تصورية جديدة تقوم على اليقين والقطع ومن هنا يظهر أن القَسَم ليس مجرد وسيلة للتأكيد فقط؛ بل هو استراتيجية معقدة تراعي مقتضى حال المخاطب وتعمل على توجيه سلوكه الاستجابي بما يتوافق مع مقاصد النص وتطلعاته الإقناعية وبذلك يكتمل الدور الحجاجي للقسم بعدّه جسراً يربط بين قصدية المتكلم وقناعة المتلقي، قال تعالى:**(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)** الليل/١-٤، يقسم الله – جلَّ في علاه– بآيتين: الليل والنهار، ومن خلال تنويع المقسم به يبرز أسلوباً فريداً في الآية لم يكتفِ هذا الاسلوب بتأكيد الخبر؛ بل صنع شبكة من التقابلات الوجودية التي تُرغم المتلقي من خلال توجيهه على التسليم بالنتيجة الحجاجية النهائية، فتعدد المقسم به هنا ليس تراكمياً للزينة؛ بل هو غاية إلى بناء توجيه متصاعد من خلال استعمال الثنائيات المتقابلة التي عملت كموجهات إدراكية للمتلقي، مع صفة كل منهما فالصفة المصورة لمشهد غشيان الليل وتجلية النهار يمثلان الزمان في التغشية/التجلية؛ فالليل حين يغشى البسيطة ويغمرها ويخفيها، والنهار حين يتجلى ويظهر فيسفر ويظهر في تجليه كل شيء، وهما آيتان متقابلان في دورة الفلك وفي الصورة والخصائص والآثار. كذلك يقسم بخلقه وبجنسين متقابلين: "وما خلق الذكر والأنثى" يمثلان النوع في الذَّكَرَ/الأُنثَى؛ تكملة لظواهر التقابل في جو السورة وحقائقها جميعاً. وقد عمل هذا التعدد كعامل توجيه رسخ مبدأ الثنائية والتقابل في الكون؛ فكما أن الكون لا يستوي بليلٍ دائم أو نهارٍ دائم، وكما أن الوجود البشري لا يستقيم بنوع واحد، فإن السعي البشري بالضرورة يجب أن يكون متفاوتاً.

فالليل والنهار والذكر والأنثى ظاهرة شاملة لها دلالة توحي للقلب البشري عند التدبر والتفكر قاطعة في أن هنالك يداً أخرى تدير هذا الفلك بهذا النظام والاطراد والدقة، وأن الذي يديره هكذا يدير حياة البشر أيضاً ولا يتركهم سدى ولا يخلقهم عبثاً. وبهذا ينتقل القَسَم من مجرد "يمين" إلى "قياس منطقي" مضمر؛ فالاختلاف في المقسم به (الكوني) يُمهد للاختلاف في المقسم عليه (البشري)، وكان عمل القَسَم موجهاً لذهن السامع لمشاهدة التضاد الكوني – ليل/ نهار– ليسقط هذا التضاد فوراً على فعل الإنسان، مما يجعل جواب القَسَم حقيقة لا تقبل الجدل ونتيجة حجاجية حتمية تضافرت فيها كلمة "شتى" مع القسم لتشكيل نظرة شمولية أوسع، فهي لا تعني الاختلاف البسيط، بل التشتت والتباعد الجذري في المصير.

لقد شكل القَسَم في الآية حجر الزاوية، فلو فُقد من الخطاب لكان خبراً يحتمل التصديق أو التكذيب، ولكن بتعدد القَسَم أصبح نقطة انطلاق؛ فكان إنكار اختلاف السعي والمجازاة عليه يقتضي إنكار اختلاف الليل والنهار، وهو أمر ممتنع عيانياً. وهذه الحقيقة الإنسانية التي يقسم الله بها لعظم دلالتها، يجعلها السياق القرآني إطاراً لحقيقة العمل والجزاء في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى (ينظر، قطب،٢٠٠٣، ٣٩٢١/٣٠) .

السِفر الثالث: القَسَم مرجعية حجاجية وسلطة استدلالية

تنتقل الوظيفة الحجاجية للقسم في النص القرآني من مجرد الصيغة اللسانية إلى اختيار المادة التي يُقسم بها إذ يمثل المقسم به المرجعية التي يستمد منها الخطاب قوته الإقناعية وسلطته على المتلقي فالقَسَم بالظواهر الكونية والوجودية لا يأتي لمجرد التعظيم بل باعتبار هذه الظواهر حججاً عقلية ومشاهدات حسية تؤيد القضية الكبرى المراد إثباتها في جواب القَسَم وهنا يتحول المقسم به من كائن لغوي إلى دليل برهاني يربط بين عالم الشهادة وعالم الغيب فيُستدل بانتظام الكون وظواهره المرئية على صدق الحقائق الغيبية التي يطرحها النص وبذلك يمارس المقسم به نوعاً من الضغط الحجاجي على عقل المتلقي الذي لا يملك إنكار الواقع المحسوس مما يضطره منطقياً إلى قبول النتيجة المترتبة عليه، قال تعالى:**(فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)** الواقعة/٧٥-٧٧، فقد رسم القَسَم في الآية مثالاً فريداً فهو لم يكتف بتوجيه المتلقي؛ بل مارس ضغطا للقوة الإنجازية في توجيه المتلقي إلى المقسم عليه من خلال براعة الاستهلال، فدخول "لا" على فعل القَسَم يُعد عدولاً عن المألوف اللساني بلاغياً، وتأكيد القَسَم بالنفي، وهو أسلوب يُراد به تعظيم المقسم به حتى كأن القَسَم به لا يفي بحقه، أو نفي الحاجة للقسم لظهور الحق. هذا العدول يكسر رتابة التلقي ويخلق نوعاً من التشويق البلاغي الذي يشد انتباه السامع لما سيأتي بعد هذا النفي المفاجئ لإشعار المخاطب بأن "المقسم به" (مواقع النجوم) من العظمة بحيث لا يحتاج لقسم، أو أن "المقسم عليه" (القرآن) من الوضوح بحيث يتجاوز الحاجة لتوكيده باليمين. هذا النوع من "التوجيه بالعدول" يضع المتلقي في حالة تأهب ذهني قصوى (ينظر: الرازي، ١٤٢٠، ٤٢٧/٢٩)، فمواقع النجوم تعني هندسة الكون ومسافاته، المدارات، والمنظومة التي لا يدرك أبعادها إلا ذو علم. هذا الاختيار يوجه المتلقي من "المحسوس" (النجوم) إلى "المجرد" (النظام/المواقع)، مما يبني "سلماً حجاجياً" يربط بين إحكام نظام الكون وإحكام نظام القرآن مع استعمال صفة "كريم" يوجه المتلقي لتقدير المحتوى، وهو استلزام حجاجي يقابل "عظمة" المواقع في القَسَم. فالعظمة في الكون تقابلها الكرامة في الوحي (ينظر: قطب،٢٠٠٣، ٣٤٦٧/٣٠). شكل الإيجاز بالحذف فجوه ترك للخيال فيها مساحة لرسم حجم الجهل البشري أمام العظمة الإلهية، كما إن استعمال التوكيد المتراكم – إنّ، واللام المزحلقة، والجملة الاسمية– ساهم في تثبيت صفة العظمة للقسم نفسه، والذي ساعد في ابرازه حسن النسق، إذ بدأ بالكون (النجوم)، ثم انتقل للفعل (القَسَم)، ثم انتهى بالغاية (القرآن) فرتب المعاني ترتيباً ذهنياً يبدأ من المحسوس الكوني وينتهي بالمقدس الديني.

ويتجلى الحجاج بالمقدس في القَسَم بالذات الإلهية أو بصفات الربوبية كأعلى مرجعية حجاجية يمكن اللجوء إليها لقطع دابر الشك ورفع منسوب اليقين في الخطاب فيمثل هذا النوع من القَسَم حجة سلطوية نهائية تلزم المخاطب بالإذعان المطلق لما يليه من إخبار، قال تعالى: **(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)** النساء/٦٥، فقد تجلى القَسَم في هذه الآية بعده آلة توجيه تجاوز فيها وظيفته الإخبارية ليؤسس لشرعية دستورية وقضائية مطلقة ما كانت معهودة من قبل، فلم يعمل القَسَم في هذا النص كأداة توكيد لغوية فحسب، بل كموجه حجاجي من خلال ربط الايمان بالتسليم المطلق لما يتم الفصل به، فالله – جلَّ في علاه– لا يخبرنا عن حقيقة خارجية، بل كان بمثابة إعلان معيار جديد للإيمان من خلال القَسَم الذي هو بمحل العقد الذي يربط بين

الاعتراف بالربوبية والقبول بالتحكيم، مهد لهذا الربط العامل الحجاجي المتمثل بالنفي والتي كانت مهمته داخل النص ان يكسر أفق التوقع للجميع من خلال ما قد يتوهمه البعض من إمكانية الجمع بين الإيمان وعدم الرضا بحكم النبي– صلى الله عليه وآله– فمهد الطريق للقسم "ربك" بإضافة الرب إلى كاف الخطاب للنبي– صلى الله عليه وآله– والذي عمل بدوره كموجه أساسي نحو مصدر السلطة وما فيه من دلالة الاتصال بين الأرض والسماء فكل الاحكام الصادرة منه –صلى الله عليه وآله – هي من السماء(ينظر: دروزة،٨،٢٠٠٠/١٦١) .

لقد شكل القَسَم قاعدة راسخة لا تقبل الجدل في إعطاء أحكام النبي شرعية إلهية مباشرة وعمل على توجه المتلقي الى ذلك من خلال مجموعة إجراءات وهي: القبول الظاهري بالتقاضي في قوله تعالى:**(حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)**، و توجيه القلب نحو الرضا التام ونفي الضيق الكامن في قوله تعالى: **(ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ)**، والتسليم المطلق في قوله تعالى: **(وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)** الذي كان بمثابة موجه تأكيدي نهائي أغلق دائرة الحجاج، فلم يبقي للمتلقي أي مخرج سوى التسليم الكلي (ينظر، حوّى، ١٩٨٥، ١١٠٧/٢).

كما نجد أن النص القرآني قد وظف القَسَم بالزمان كالعصر والضحى والليل ليجعل من صيرورة الوقت وتبدل أحوال المادة حجة على تبدل أحوال الإنسان ومصيره مما يبني سلماً حجاجياً يربط بين المتغير الزمني والثابت العقدي وهذا الربط ليس عشوائياً بل هو هندسة دقيقة تهدف إلى جعل المقسم به مرآة تنعكس عليها حقيقة المقسم عليه مما يعزز الوحدة العضوية للخطاب ويمنحه تماسكاً منطقياً يصعب اختراقه، قال تعالى: **(وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)** الضحى/١–٣، مثل القَسَم في هذه الآيات مثالاً فائق الدقة لما يمتلكه من توجيه نحو الطمأنينة عبر الربط الحجاجي بين نواميس الكون وأحوال النفس البشرية، فاستعمل الخطاب القرآني ثنائية الضحى/ الليل كموجهات إدراكية، فالضحى: يمثل الانبلاج، الضياء، والحيوية، الليل إذا سجى: يمثل السكون، الركود، والهدوء، فحين يُقسم الله بآياته، فإنه لا يخبر بحقيقة تاريخية فحسب، بل يُنجز فعل التثبيت والربط على قلوب المؤمنين فالقَسَم هنا هو موجه حجاجي لامتصاص القلق النفسي الناتج عن زعم المشركين مستعملا فيه الظواهر الكونية فكما أن التقلب بين الضياء (الضحى) والسكون (الليل) هو نظام كوني طبيعي ولا يعني هجر الشمس للأرض، بل هو نسق مودع في الكون وهذا التوجيه الكوني الذي ساقه القَسَم هو الممهد المنطقي لجواب القَسَم الذي جاء كنتيجة حجاجية مبنية على مقدمات كونية كان الهدف منها إفحام الخصم من المشركين الذين اتخذوا من انقطاع الوحي حجة على الهجر فجاء القَسَم الكوني ليبطل "حجتهم" عبر إثبات أن "السكون" (الليل) جزء من نظام "النور" (الضحى)، وليس نقيضاً له فكما أن سكون الليل لا يعني هجر النهار، فإن صمت الوحي لا يعني هجر الرب لنبيه.

تبرز المرجعية الحجاجية في القَسَم بالأشياء التي تلامس واقع المتلقي المباشر كالخيل والبلد والزيتون حيث يتم استحضار هذه النماذج لتكون شواهد حية تنطق بصدق الرسالة فالاختيار الدقيق للمقسم به يراعي دائماً الحالة الذهنية والبيئية للمخاطب مما يجعل الحجة قريبة من مداركه الحسية ويسهل عملية التلقي والتصديق فالنص لا يقدم حججاً مجردة بل يستخرج الحجة من صلب الواقع الذي يعيشه الإنسان مما يحول الكون كله إلى كتاب مفتوح من الأدلة التي تدعم بنية القَسَم وتوجه مسار الاستدلال نحو الغاية المنشودة وبذلك يتضح أن المقسم به في الاستراتيجية القرآنية هو الركيزة التي يستند إليها الفعل الكلامي لتحقيق غايته في الإقناع والتأثير وتغيير المواقف الاعتقادية للمتلقين .

لقد كان حضور القَسَم في النص القرآني ظاهرة أسلوبية لافتة تتجاوز في أبعادها مجرد التوكيد اللفظي لتشكل استراتيجية خطابية متكاملة تهدف إلى بناء القناعات وتوجيه المواقف الذهنية للمخاطبين ومع تطور الدراسات اللسانية والحجاجية على وجه الخصوص كانت هذه الدراسة محاولة لإعادة قراءة هذا الأسلوب وفق منظور جديد يخرجه من إطار

الدراسات النحوية الوصفية التي انحصرت عقوداً طويلة في تتبع الحروف والأدوات وحالات الإعراب إلى رحابة التحليل الحجاجي الذي يبحث في المقاصد والغايات والقوى التأثيرية الكامنة في بنية الخطاب.

الخاتمة

إن القَسَم في القرآن الكريم قد خرج ببراعة من كونه مجرد قالب نحوي ليصبح طاقة خطابية هائلة، قادرة على توجيه العقول وتغيير القناعات، وأن سر الإعجاز في الأقسام القرآنية يكمن في ذلك الربط الإعجازي بين المشاهد الكونية الغنية بالدلالة وبين الحقيقة الوجودية المطلقة وما يضفيه القَسَم على الملفوظ. فهو – القَسَم– ليس مجرد زينة لفظية لرفع الشك؛ بل هو تقنية حجاجية تهدف إلى محاصرة اعتراضات المخاطب وإفحامه وليس كما في المنهج التقليدي عندما يكون القَسَم تابعا للخبر، فهو في المنطق الحجاجي، يحدد القيمة الحجاجية للخبر وينقله من مجرد احتمال قابل للتصديق والتكذيب إلى حقيقة ويقين مطلق يفرضه على السامع وليس عليه إلا التسليم به .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، ط ٤ ، (د . ت) .

٢. الأساس في التفسير، سعيد حوّى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٣. الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٤. أساليب بلاغية : د . أحمد مطلوب ، ط ١ ، الكويت ، ١٩٨٠ .

٥. إمعان في أقسام القرآن، الامام عبد الحميد الفراهي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٦. بديع القرآن، ابن أبي الاصبع المصري(٦٥٤هـ)، تحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر، للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت.

٧. البرهان في علوم القرآن: الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق :

٨. بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، ١٩٩٢م.

٩. التبيان في أقسام القرآن: شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: طه يوسف شاهين، دار الكتاب العربي، (د. ت).

١٠. التفسير الحديث، ترتيب السور حسب النزول، محمد عزة دروزة، دار الغرب الاسلامي، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١١. التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

١٢. التواصل والحجاج، الاستاذ عبد الرحمن طه، مطبعة المعارف الجديد، الرباط، د.ط، د.ت.

١٣. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع : أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان ، ط ١٢ ، (د . ت) .

١٤. الخصائص، لإبن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٢، د.ت.

١٥. دراسات وترجمات في العلوم الدلالية والتداولية، صابر الحباشة، من اصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية، بغداد، ط١، ٢٠١٣م.

١٦. شرح الكافية الشافية، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، تحقيق: عبد المنعم احمد هريري ، دار المأمون للتراث ، المملكة العربية السعودية ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٨٢ م .

١٧. الصحاح : اسماعيل بن حماد الجوهري ، تح : أحمد عبد الغفور عطار ، ط ٣ ، ١٩٨٢ .

١٨. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية بيروت . لبنان ، (د . ت) .

١٩. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٣٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٢٠. كتاب المقتضب، أبي العباس محمد بن يزيد المبرد(ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمه، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة، ط٣، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٢١. الكتاب، كتاب سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٢٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط٣، ١٤٠٧هـ .

٢٣. لسان العرب المحيط : لابن منظور ، إعداد وتصنيف : يوسف خياط ، دار لسان العرب ، بيروت . لبنان ، (د . ت).

٢٤. مباحث إسلامية : طه الراوي ، تح : حارث طه الراوي ، مطبعة . أسعد، بغداد ، (د . ت) .

٢٥. مباحث في علوم القرآن، منّاع القطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . لبنان ، (د . ت) .

٢٦. مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الاسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المرتضى، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٢٧. معترك الأقران في إعجاز القرآن : جلال الدين السيوطي ، تح : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .

٢٨. معترك الأقران في إعجاز القرآن، لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي(ت٩١١هـ) ، ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٢٩. مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط ١ ، ١٩٣٧ م .

٣٠. الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٣١. النحو الوافي، عباس حسن ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، (د . ت) .